

سُورَةُ الحُجُرَاتِ



مدنية/آياتها (١٨)

عن الحسن وقتادة وعكرمة، وعن ابن عباس، إلا آية قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

● **عدد آيها:** ثماني عشرة آية بالإجماع.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الحجرات أُعطِي من الأجر عشر حسنات، بعدد من أطاع الله ومن عصاه». الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الحجرات في كل ليلة وفي كل يوم، كان من زوار محمد ﷺ.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة الفتح بذكر نبيه ﷺ، افتتح هذه السورة أيضاً بذكره، وما يختص به من الإجلال والإعظام، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ
عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ
تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «لا تَقدموا» بفتح التاء والدال، والباقون: «ولا تُقدِموا» بضم التاء وكسر الدال. وقرأ أبو جعفر: «الحُجَرات» بفتح الجيم، والباقون: بضمها.

● **الحجة:** قال ابن جني: معناه: لا تفعلوا ما تؤثرونه، وتتركوا ما أمركم الله ورسوله به. وهذا معنى القراءة المشهورة «لا تُقدِّموا» أي: لا تقدموا أمراً على ما أمركم الله به، فالمفعول هنا محذوف كما ترى. ومن قرأ: «الحُجَرات» أبدل من الضمة فتحة استثقالاً لتوالي الضمتين، ومنهم من أسكن فقال: «الحُجْرات» مثل عضُد وعضْد، وقال أبو عبيدة: حجُرات جمع حجَر، فهو جمع الجمع.

● **اللغة:** قدَّم تقديماً، وأقدم إقداماً، واستقدم وقدِم كل ذلك بمعنى تقدم. والجهر:

ظهور الصوت بقوة الاعتماد، ومنه الجهارة في المنطق، وجاهر بالأمر مجاهرة، ويقال: جهاراً، ونقيض الجهر: الهمس. والحروف المجهورة تسعة عشر حرفاً يجمعها قولك: «أطلقن ضرغم عجز ظبي ذواد». وما عداه من الحروف مهموس، يجمعها قولك: «حث فسكت شخصه» والغض: الحط من منزلة على وجه التصغير، يقال: غض فلان: إذا صغّر حالة من هو أرفع منه، وغض بصره: إذا أضعفه عن حدة النظر، قال جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نمير، فلا كَعْباً بَلَغْتَ، ولا كِلابا

● **الإعراب:** ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ في محل النصب، لأنه مفعول له، ويجوز أن يكون في محل جر باللام المقدرة، أي: لأن تحبط أعمالكم. وقيل تقديره: كراهة أن تحبط، أو حَذارِ أن تحبط.

● **النزول:** نزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في وفد تميم: وهم عطارد بن حاجب بن زرارة، في أشراف من بني تميم، منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وقيس بن عاصم، في وفد عظيم. فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات: أن أخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم، فقالوا: جئناك لنفاخرك، فَأْذن لشاعرنا وخطيبنا، فقال: قد أذنت. فقام عطارد بن حاجب وقال:

الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً، الذي له الفضل علينا، والذي وهب علينا أموالًا عظاماً، نفعل بها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثر عدداً وعدة، فمن مثلنا في الناس؟ فمن فاخرنا فليعد مثل ما عددنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكنا نستحي من الإكثار. ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: قم فأجبه، فقام فقال:

الحمد لله الذي في السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيُّه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولًا، أكرمهم نسباً وأصدقهم حديثاً، فأنزل الله عليه كتاباً وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله على العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله، فآمن به المهاجرون من قومه، وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، فكان أول الخلق إجابة، واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار رسول الله ﷺ وردْؤه، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن نكث[1] جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله يسيراً. أقول هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.

ثم قام الزبرقان بن بدر ينشد، وأجابه حسان بن ثابت، فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع: إن هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى

---

(١) وفي نسخة: «مكث» بدل «نكث».

من أصواتنا. فلما فرغوا أجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم، وأسلموا، عن ابن إسحاق.

وقيل: إنهم أناس من بني العنبر، كان النبي ﷺ أصاب من ذراريهم، فأقبلوا في فدائهم، فقدموا المدينة، ودخلوا المسجد، وعجلوا أن يخرج إليهم النبي ﷺ، فجعلوا يقولون: يا محمد، اخرج إلينا، عن أبي حمزة الثمالي، عن عكرمة عن ابن عباس.

● **المعنى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ما سُلت السيوف، ولا أُقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف، ولا جُهر بأذان، ولا أنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج. ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بين اليدين عبارة عن الأمام، لأن ما بين يدي الإنسان أمامه، ومعناه: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله، ولا تعجلوا به. قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدم بين يدي الإمام، وبين يدي الأب، أي: لا تعجل بالأمر دونه والنهي. وقدَّم هنا بمعنى تقدم، وهو لازم. وقيل معناه: لا تقدموا أعمال الطاعة قبل الوقت الذي أمر الله ورسوله به، حتى إنه قيل: لا يجوز تقديم الزكاة قبل وقتها، عن الزجاج.

وقيل[1]: لا تُمكِّنوا أحداً يمشي أمام رسول الله ﷺ، بل كونوا تُبَّعاً له، وأَخِّروا أقوالكم وأفعالكم عن قوله وفعله.

وقال الحسن: نزل في قوم ذبحوا الأضحية قبل صلاة العيد، فأمرهم رسول الله ﷺ بالإعادة. وقال ابن عباس: نُهوا أن يتكلموا قبل كلامه، أي: إذا كنتم جالسين في مجلس رسول الله ﷺ، فسئل عن مسألة فلا تسبقوه بالجواب، حتى يجيب النبي ﷺ أولًا. وقيل معناه: لا تسبقوه بقول ولا فعل حتى يأمركم به، عن الكلبي والسدي. والأولى حمل الآية على الجميع، فإن كل شيء كان خلافاً لله ورسوله، إذا فُعل، فهو تقديم بين يدي الله ورسوله، وذلك ممنوع. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اجتنبوا معاصيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم فيجازيكم بها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ لأن فيه أحد الشيئين: إما نوع استخفاف به فهو الكفر، وإما سوء الأدب فهو خلاف التعظيم المأمور به. ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: غضوا أصواتكم عند مخاطبتكم إياه وفي مجلسه، فإنه ليس مثلكم، إذ يجب تعظيمه وتوقيره من كل وجه. وقيل معناه: لا تقولوا له: يا محمد، كما يخاطب بعضكم بعضاً، بل خاطبوه بالتعظيم والتبجيل، وقولوا: يا رسول الله. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: كراهة أن تحبط أو لئلا تحبط أعمالكم. وقيل: إنه في حرف عبد الله: «فتحبط أعمالكم» ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: وأنتم لا تعلمون أنكم أحبطتم أعمالكم بجهر صوتكم على صوته وترك تعظيمه.

قال أنس: لما نزلت هذه الآية، قال ثابت بن قيس: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق

---

(١) [معناه].

صوت رسول الله ﷺ، فأجهر له بالقول، حبط عملي وأنا من أهل النار، وكان ثابت رفيع الصوت. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هو من أهل الجنة. وقال أصحابنا: إن المعنى في قوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أنه ينحبط ثواب ذلك العمل، لأنهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبي ﷺ وتوقيره لاستحقوا الثواب، فلما فعلوه على خلاف ذلك الوجه، استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب، فانحبط عملهم، فلا تعلق لأهل الوعيد بهذه الآية، ولأنه تعالى عَلَّق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل، وهم يُعَلِّقونه بالمستحق على العمل، وذلك خلاف الظاهر.

ثم مدح سبحانه من يُعَظِّم رسوله ويُوَقِّره، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: يخفضون أصواتهم في مجلسه إجلالاً ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: اختبرها فأخلصها للتقوى، عن قتادة ومجاهد. أُخِذَ من امتحان الذهب بالنار إذا أذيب حتى يذهب غشه ويبقى خالصه. وقيل معناه: إنه علم خلوص نياتهم، لأن الأنسان يمتحن الشيء ليعلم حقيقته. وقيل معناه: عاملهم معاملة المختبر بما تعبدهم به من هذه العبادة، فخلصوا على الاختبار كما يخلص جَيِّد الذهب بالنار. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على طاعتهم.

ثم خاطب النبي ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ وهم الجفاة من بني تميم، لم يعلموا في أي: حجرة هو، فكانوا يطوفون على الحجرات وينادونه. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وصفهم الله سبحانه بالجهل وقلة الفهم والعقل، إذ لم يعرفوا مقدار النبي ﷺ، ولا ما استحقه من التوقير، فهم بمنزلة البهائم. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من أن ينادوك من وراء الحجرات، في دينهم بما يحرزونه من الثواب، وفي دنياهم باستعمالهم حسن الأدب في مخاطبة الأنبياء، ليعدوا بذلك في زمرة العقلاء. وقيل معناه: لأطلقت أسراهم بغير فداء، فإن رسول الله ﷺ كان سبى قوماً من بني العنبر، فجاءوا في فدائهم فأعتق نصفهم، وفادى النصف، فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ لكنت تعتق. كلهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب منهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «فأصلحوا بين إخوتكم» بالتاء على الجمع، وهو قراءة ابن سيرين، والباقون: «بين أخويكم» على التثنية لقوله: «طائفتان». وفي الشواذ قراءة زيد بن ثابت والحسن: «إخوانكم» بالألف والنون على الجمع، وقد ذكرناه في سورة النساء اختلافهم في قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ والوجه في القراءتين. والمروي عن الباقر عليه السلام: «فتثبتوا» بالثاء والتاء.

● **اللغة:** العنت: المشقة، يقال: عنت الدابة تعنِت عنتاً، إذا حدث في قوائمها كسر بعد جبر لا يمكنها معه الجري. قال ابن الأنباري: أصل العنت: التشديد، يقال: فلان يعنِت فلاناً، أي: يشدد عليه ويلزمه ما يصعب عليه. ثم نقل إلى معنى الهلاك. والقسط: العدل، ونحوه الإقساط والقسوط، والقسط بالفتح: الجور والعدول عن الحق، فأصل الباب: العدول، فمن عدل إلى الحق فقد أقسط، ومن عدل عن الحق فقد أقسط.

● **الإعراب:** ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾ في الظرف الذي هو ﴿فِيكُمْ﴾ عند النحويين، وفيه نظر، لأن من حق الخبر أن يكون الخبر مفيداً، فلا يقال: النار حارة، لعدم الفائدة، والوجه عندي أن يكون لو مع ما في حيزه خبر أن، والمعنى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾. ويجوز على الوجه الأول أن يكون المراد التنبيه لهم على مكان رسول الله صلى الله عليه وآله، كما يقول القائل للرجل يريد أن يُنَبِّهه على شيء: فلان حاضر. والمخاطب يعلم حضوره، ولو قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم، احتمل أن يكون غير رسول الله فيهم ممن هو بمنزلته، فإذا قال: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ لا يحتمل ذلك على هذا، فقوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ لو مع ما في حيزه، في محل رفع بأنه خبر، أن، خبر بعد خبر. ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفعول له، والتقدير: فعل الله ذلك لكم فضلاً منه ونعمة. ويجوز أن يكون العامل فيه ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ وما فيه من الفعل، أي: رشداً وفضلاً من الله. وقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ و﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ كلاهما في موضع نصب على الحال، والعامل في الأول ﴿تُصِيبُواْ﴾ وفي الثاني ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾.

● **النزول:** قوله: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾ نزل في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله في صدقات بني المصطلق، فخرجوا يتلقونه فرحاً به، وكانت بينهم عداوة في الجاهلية، فظن أنهم هموا بقتله، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: إنهم منعوا صدقاتهم، وكان الأمر بخلافه، فغضب النبي صلى الله عليه وآله وهَمَّ لا يغزوهم، فنزلت الآية، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقيل: إنها نزلت فيمن قال للنبي صلى الله عليه وآله: إن مارية أم إبراهيم يأتيها ابن عم لها قبطي، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وقال: يا أخي، خذ هذا السيف فإن وجدته عندها فاقتله، فقال: يا رسول الله، أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة، أمضي لما أمرتني، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال صلى الله عليه وآله: بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. قال علي عليه السلام: فأقبلت متوشحاً بالسيف، فوجدته عندها، فاخترطت السيف، فلما عرف أني أريده أتى نخلة فرقى إليها، ثم رمى بنفسه على قفاه، وشغر برجليه. فإذا أنه أَجَبٌّ أَمْسَحُ، ما له مما للرجال

قليل ولا كثير. فرجعت فأخبرت النبي ﷺ، فقال: الحمد لله الذي يصرف عنا السوء أهل البيت.

وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ نزل في الأوس والخزرج، وقع بينهما قتال بالسعف والنعال، عن سعيد بن جبير. وقيل: نزل في رهط عبد الله بن أُبَيّ بن سلول من الخزرج، ورهط عبد الله بن رواحة من الأوس، وسببه أن النبي ﷺ وقف على عبد الله بن أُبَيّ، فراث حمار رسول الله ﷺ، فأمسك عبد الله أنفه وقال: إليك عني، فقال عبد الله بن رواحة: لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ومن أبيك. فغضب قومه، وأعان ابن رواحة قومه، وكان بينهما ضرب بالحديد والأيدي والنعال.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ أي: بخبر عظيم الشأن. والفاسق: الخارج عن طاعة الله إلى معصيته. ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ صدقه من كذبه، ولا تبادروا إلى العمل بخبره، ومن قال: «فتثبتوا» فمعناه: توقفوا فيه وتأنوا حتى يثبت عندكم حقيقته، ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ أي: حذراً من أن تصيبوا قوماً في أنفسهم وأموالهم بغير علم بحالهم، وما هم عليه من الطاعة والإسلام، ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ من إصابتهم بالخطأ ﴿نَـٰدِمِينَ﴾ لا يمكنكم تداركه.

وفي هذا دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل، لأن المعنى: إن جاءكم من لا تأمنون أن يكون خبره كذباً فتوقفوا فيه. وهذا التعليل موجود في خبر من يجوز كونه كاذباً في خبره. وقد استدل بعضهم بالآية على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلاً، من حيث إن الله سبحانه أوجب التوقف في خبر الفاسق، فدل على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه، وهذا لا يصح، لأن دليل الخطاب لا يُعَوَّل عليه عندنا وعند أكثر المحققين.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: فاتقوا الله أن تكذبوه، أو تقولوا باطلاً عنده، فإن الله تعالى يخبره بذلك فتفضحوا. وقيل معناه: واعلموا بما أخبره الله تعالى من كذب الوليد أن فيكم رسول الله ﷺ، فهذه إحدى معجزاته. ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو فعل ما يريدونه في كثير من الأمر لوقعتم في عنت، وهو الإثم والهلاك. فسمى موافقته لما يريدونه طاعة لهم مجازاً، ألا ترى أن الطاعة تراعى فيها الرتبة، فلا يكون الإنسان مطيعاً لمن دونه، وإنما يكون مطيعاً لمن فوقه إذا فعل ما أمره به. ثم خاطب المؤمنين الذين لا يكذبون، فقال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ أي: جعله أحب الأديان إليكم، بأن أقام الأدلة على صحته، وبما وعد من الثواب عليه، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بالألطاف الداعية إليه، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ بما وصف من العقاب عليه بوجوه الألطاف الصارفة عنه ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ أي: الخروج عن الطاعة إلى المعاصي ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ أي: جميع المعاصي. وقيل: الفسوق الكذب، عن ابن عباس وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. ثم عاد سبحانه إلى الخبر عنهم، فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ يعني الذين وصفهم بالإيمان وزيّنه في قلوبهم، هم المهتدون إلى محاسن الأمور. وقيل: هم الذين أصابوا الرشد واهتدوا إلى الجنة، ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: تفضلاً مني

عليهم، ورحمة مني لهم، عن ابن عباس. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأشياء كلها ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله. وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر من وجوه:

منها: إنه إذا حَبَّب في قلوبهم الإيمان وكرَّه الكفر، فمن المعلوم أنه لا يحبب ما لا يحبه ولا يكرِّه ما لا يكرهه.

ومنها: إنه إذا ألطف في تحبيب الإيمان بألطافه، دل ذلك على ما نقوله في اللطف. ثم قال:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي: فريقان من المؤمنين قاتل أحدهما صاحبه، ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ حتى يصطلحا، ولا دلالة في هذا على أنهما إذا اقتتلا بقيا على الإيمان، ويطلق عليهما هذا الاسم، ولا يمتنع أن يُفسَّق إحدى الطائفتين أو تفسَّقا جميعاً. ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ بأن تطلب ما لا يجوز لها، وتقاتل الأخرى ظالمة لها متعدية عليها ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ لأنها هي الظالمة المتعدية دون الأخرى، ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى طاعة الله، وتترك قتال الطائفة المؤمنة. ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ أي: رجعت وتابت وأقلعت، وأنابت إلى طاعة الله ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ أي: بينها وبين الطائفة التي هي على الإيمان ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط حتى يكونوا سواء، لا يكون من إحداهما على الأخرى جور ولا شطط فيما يتعلق بالضمانات من الأُروش. ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أي: اعدلوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين الذين يعدلون فيما يكون قولًا وفعلًا.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين، يلزم نصرة بعضهم بعضاً. ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي: بين رجلين تقاتلا وتخاصما، ومعنى الاثنين يأتي على الجمع، لأن تأويله: بين كل أخوين، يعني: فأنتم إخوة للمقاتلين، فأصلحوا بين الفريقين، أي: كفوا الظالم عن المظلوم، وأعينوا المظلوم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ترك العدل والإصلاح، أو في منع الحقوق ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لكي ترحموا.

قال الزجاج: سمي المؤمنين إذا كانوا متفقين في دينهم إخوة؛ لاتفاقهم في الدين، ورجوعهم إلى أصل النسب، لأنهم لأم واحدة وهي حواء. وروى الزهري عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة، فرَّج الله بها عنه كربة من كروب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً يستره الله يوم القيامة». أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما. وفي وصية النبي ﷺ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «سِرْ ميلًا عد مريضاً، سر ميلين شَيِّعْ جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زُر أخاً في الله، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف، سر ستة أميال انصر المظلوم، وعليك بالاستغفار».

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ بما قبله، أنه لما أمر بطاعة الله

ورسوله، بيَّن عقيبه أن الرسول لا يجوز أن يتبع أهواءهم، بل ينبغي أن يعمل بما عنده. ووجه اتصال قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ لئلا تقعوا في العنت[1]، وإنما قلنا ذلك لأن ﴿لَٰكِنَّ﴾ لا بد أن يتقدمه نفي إذا كان ما بعده إثباتاً، وقوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾ معناه: إنه لم يطعكم فما عنتُّم.

●●●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: «لا يألتكم» بالألف، والباقون: «لا يلتكم» بغير الألف.

● **الحجة:** قال أبو زيد: ألته حقَّه يألته ألْتاً: إذا نقصه، وقوم يقولون: لاتَ يَليت ليتاً، ويقول: لِتُّ الرجل أَليته ليتاً: إذا عمَّيتَ عليه الخبر فأخبرته بغير ما يسألك عنه. قال رؤبة:

ولــيـــلةٍ ذاتِ نـــدىً سَـــرَيْـــتُ ولـم يَـلِتْـنـي عـن سَـراهـا لَيْـتُ

وقوم يقولون: ألاتني عن حقي، وألاتني عن حاجتي، أي: صرفني عنها. وحجة من قرأ: «لا يألتكم» قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾. ومن قرأ: «يلتكم» جعله من لات يليتُ.

● **اللغة:** الهمز واللمز: العيب والغضُّ من الناس، فاللمز: هو الرمي بالعيب لمن لا يجوز أن يؤذَى بذكره، وهو المنهي عنه. فأما ذكر عيب الفاسق فليس بلمز. وقد ورد في الحديث: «قولوا في الفاسق ما فيه كي يحذَره الناس». والنبز: القذف باللقب، يقال: نبزته أنبزه. والغيبة: أن تذكر الإنسان من ورائه بسوء هو فيه، فإذا ذكرته بما ليس فيه، فهو البهْتُ والبهتان. والشعوب: هو الذي يصغِّر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم، سموا بذلك لأنهم تأوَّلوا ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا﴾ على أن الشعوب من العجم، كالقبائل من العرب. وقال

(١) [بما قبله: إنَّ قوله «لعنتُّم» بمنزلة أن يقول ما عنتُّم أي: ما عنتّم بطاعة كثير من الأمر، ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان].

أبو عبيدة: الشعوب العجم، وأصله من التشعب، وهو كثرة تفرقهم في النسب. ويقال: شعَبْتُه جمعته، وشعَّبته فرقته، وهو من الأضداد.

● **النزول:** نزل قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر، وكان إذا دخل المسجد تفسَّحوا له حتى يقعد عند النبي، فيسمع ما يقول. فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم، فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا، حتى انتهى إلى رجل فقال له: أصبت مجلساً فاجلس، فجلس خلفه مغضباً، فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة، ذكر أماً له كان يُعَيَّر بها في الجاهلية، فنكس الرجل رأسه حياء، فنزلت الآية، عن ابن عباس.

وقوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ نزل في نساء النبي ﷺ، سخِرن من أم سلمة، عن أنس. وذلك أنها ربطت حَقْوَيها بسَبَنِيَّة وهي ثوب أبيض، وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجره، فقالت عائشة لحفصة: أنظري ماذا تجرُّ خلفها كأنه لسان كلب، فلهذا كانت سخريتهما. وقيل: إنها عيَّرتها بالقصر وأشارت بيدها أنها قصيرة، عن الحسن.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ نزل في رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ اغتابا رفيقهما، وهو سلمان، بعثاه إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام، فبعثه إلى أسامة بن زيد، وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله، فقال: ما عندي شيء، فعاد إليهما فقالا: بخل أسامة، وقالا لسلمان: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله، فقال لهما رسول الله ﷺ: مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالا: يا رسول الله، ما تناولنا يومنا هذا لحماً، قال: ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة. فنزلت الآية. وعن أبي قلابة قال: إن عمر بن الخطاب حُدِّث أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته هو وأصحابه، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس. فقال عمر: ما يقول هذا؟ قال زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم: صدق يا أمير المؤمنين. قال: فخرج عمر وتركه. وخرج عمر بن الخطاب أيضاً ومعه عبد الرحمن بن عوف، يعسَّان. فتبينت لهما نار، فأتيا واستأذنا، ففتح الباب فدخلا، فإذا رجل وامرأة تغني، وعلى يد الرجل قدح، فقال عمر: من هذه منك؟ قال: امرأتي. قال: وما في هذا القدح؟ قال: ماء، فقال للمرأة: ما الذي تغنين؟ قالت: أقول:

تطاولَ هذا الليلُ واسْوَدَّ جانِبُهُ ... وأرَّقَني ألا حبيبٌ أُلاعِبُهُ
فواللهِ لولا خشيةُ اللهِ والتُّقى ... لَزَعْزَعَ من هذا السريرِ جوانِبُهُ
ولكِنَّ عقلي والحياءَ يكنفني ... وأُكْرِمُ بَعْلي أنْ تُنَالَ مراكِبُهُ

ثم قال الرجل: ما بهذا أُمِرْنا يا أمير المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقال عمر: صدقت وانصرف.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ قيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وقوله للرجل الذي لم يتفسح له: ابن فلانة، فقال ﷺ: من الذاكر فلانة؟ فقام ثابت فقال: أنا يا رسول الله، فقال: انظر في وجوه القوم، فنظر إليهم، فقال: ما رأيت يا ثابت؟ قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر، قال: فإنك لا تفضُلهم إلا بالتقوى والدين. فنزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ الآية، عن ابن عباس. وقيل: لما كان يوم فتح مكة، أمر رسول الله ﷺ بلالًا حتى علا ظهر الكعبة وأذن، فقال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم. وقال الحرث بن هشام: أما وجَد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟! وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره لغيره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً، أخاف أن يخبره به رب السماوات. فأتى جبرائيل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبره بما قالوا، فدعاهم رسول الله ﷺ وسألهم عما قالوا، فأقروا به، ونزلت الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب، والازدراء بالفقر، والتكاثر بالأموال، عن مقاتل.

● **المعنى**: لما أمر سبحانه بصلاح ذات البين، ونهى عن التفرق، عقَّب ذلك بالنهي عن أسباب الفرقة من السخرية والازدراء بأهل الفقر والمسكنة ونحو ذلك، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ قال الخليل: القوم يقع على الرجال دون النساء، لقيام بعضهم مع بعض في الأمور. قال زهير:

وما أدري ولستُ أخالُ أدري　　أَقَومٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ؟!

فالمعنى: لا يسخر رجال من رجال، والسخرية: الاستهزاء. قال مجاهد معناه: لا يسخر غني من فقير لفقره، وربما يكون الفقير المهين في ظاهر الحال، خيراً وأجل منزلة عند الله من الغني الحسن الحال، ولو سخر مؤمن من كافر احتقاراً له لم يكن مأثوماً. وقال ابن زيد: هذا نهي عن استهزاء المسلمين بمن أعلن بفسقه، عسى أن يكون المسخور عند الله خيراً من الساخر معتقداً، أو أسلم باطناً. ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ على المعنى الذي تقدم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه إذا قتل أخاه قتل نفسه، عن ابن عباس وقتادة. واللمز: العيب في المشهد، والهمز: العيب في المغيب. وقيل: إن اللمز يكون باللسان وبالعين وبالإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان. وقيل معناه: ولا يلعن بعضكم بعضاً، عن الضحاك. ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ جمع اللقب، وهو اسم غيرُ الذي سمي به الإنسان. وقيل: هو كل اسم لم يوضع له، وإذا دعي به يكرهه، فأما إذا كان لا يسوءه ولا يكرهه فلا بأس فيه، مثل الفقيه والقاضي. وقيل: هو قول الرجل للرجل: يا كافر، يا فاسق، يا منافق، عن قتادة وعكرمة. وقيل: كان اليهودي والنصراني يسلم، فيقال له بعد ذلك: يا يهودي، أو يا نصراني، فنهوا عن ذلك، عن الحسن. وقيل: هو أن يعمل إنسان شيئاً من القبيح ثم يتوب منه، فيعير بما سلف منه، عن ابن عباس.

وروى أن صفية بنت حيي بن أخطب جاءت إلى النبي ﷺ تبكي، فقال لها: ما وراءك؟

فقالت: إن عائشة تعيِّرني وتقول: يهودية بنت يهوديين، فقال لها: هلا قلت: أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد ﷺ. فنزلت الآية، عن ابن عباس.

﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئس الاسم أن يقول له: يا يهودي، يا نصراني، وقد آمن، عن الحسن وغيره. والمعنى: بئس الشيء تسميته باسم الفسوق، يعني الكفر بعد الإيمان. وقيل معناه: بئس الشيء اكتساب اسم الفسوق باغتياب المسلمين ولمزهم، وهذا لا يدل على أن اسم[١] الإيمان والفسق لا يجتمعان، لأن هذا كما يقال: بئس الحال الفسوق بعد الشيب. والمعنى: بئس الحال الفسوق مع الشيب، وبئس الاسم الفسوق مع الإيمان، على أن الظاهر أن المعنى: إن الفسوق الذي يتعقب الإيمان بئس الاسم، وذلك هو الكفر. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من التنابز والمعاصي ويرجع إلى طاعة الله تعالى ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ نفوسهم بفعل ما يستحقون به العقاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ قال الزجاج: وهو أن يُظن بأهل الخير سوء، فأما أهل السوء والفسق قلنا أن نظن بهم مثل ما ظهر منهم. وقيل: هو أن يظن بأخيه المسلم سوءاً، ولا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم. وهو قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يعني ما أعلنه مما ظن بأخيه، عن المقاتِلَيْن[٢]. وقيل: إنما قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ لأن من جملته ما يجب العمل به ولا يجوز مخالفته، وإنما يكون إثماً إذا فعله صاحبه وله الطريق إلى العلم بدلًا منه، فهذا ظن محرم لا يجوز فعله. فأما ما لا سبيل إلى دفعه بالعلم بدلًا منه فليس بإثم، ولذلك قال: ﴿بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ دون جميعه. والظن المحمود قد بيَّنه الله تعالى ودل عليه بقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ وقيل معناه: يجب على المؤمن أن يحسن الظن ولا يسيئه في شيء يجد له تأويلًا جميلًا، وإن كان ظاهراً قبيحاً.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ أي: ولا تتبعوا عثرات المؤمنين، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد. وقال أبو عبيدة: التجسس والتحسس واحد، وروي في الشواذ عن ابن عباس: «ولا تحسسوا» بالحاء. قال الأخفش: وليس يبعد أحدهما عن الآخر إلا أن التجسس عما يكتم، منه الجاسوس. والتحسس بالحاء: البحث عما تعرفه. وقيل: إن التجسس بالجيم في الشر، والجاسوس صاحب سر الشر، والناموس صاحب سر الخير[٣]. وقيل معناه: لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا العيوب التي سترها أهلها. وقيل معناه: ولا تبحثوا عما خفي حتى يظهر، عن الأَوْزَاعي. وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تنابزوا[٤]، وكونوا عباد الله إخواناً». وقوله:

---

(١) وفي نسخة ليس لفظة «اسم».
(٢) وفي نسخة: يعني مقاتل بن حسان، ومقاتل بن سليمان.
(٣) وفي نسخة: إن التجسس بالجيم في الشر، والجاسوس صاحب الشر. والتحسس في الخير، والحاسوس: صاحب سر الخير.
(٤) وفي النسخ: «ولا تدابروا» بدل «ولا تنابزوا».

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه. وفي الحديث: «إذا ذكرت الرجل بما فيه مما يكرهه الله فقد اغتبته، وإذا ذكرته مما ليس فيه فقد بَهَتَّه». عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا». ثم قال: «إن الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه». ثم ضرب سبحانه للغيبة مثلًا فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ وتأويله: إن ذكرك بالسوء من لم يحضرك، بمنزلة أن تأكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك، عن الزجاج. ولما قيل لهم: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ قالوا: لا، فقيل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: فكما كرهتم ذلك فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً، عن مجاهد. وقيل: فكما كرهتم لحمه ميتاً فاكرهوا غيبته حياً، عن الحسن. فهذا هو تقدير الكلام. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ معطوف على هذا الفعل المقدر، ومثله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا﴾ أي: وقد شرحنا ووضعنا. ويقال للمغتاب: فلان يأكل لحوم الناس، قال:

وليْسَ الذئبُ يأكُلُ لحمَ ذِئبٍ ويأكلُ بعضُنا بعضاً عِيانا

وقال آخر:

فإن يَأْكُلوا لحمي وَفَّرْتُ لحومَهُمْ وإن يَهْدِمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدا

وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً لكراهية الطبع، كذلك يجب أن يمتنع عن غيبته لكراهية العقل والشرع، لأن دواعي العقل والشرع أحق بالاتباع من دواعي الطبع، فإن داعي الطبع أعمى، وداعي العقل بصير. وعن ميمون بن شاة[1]، وكان يفضَّل على الحسن، لأنه قد لقي من لم يلقه الحسن، قال: بينا أنا نائم إذا بجيفة زنجي، وقائل يقول: كل يا عبد الله، قلت: ولم آكل؟ قال: بما اغتيب عندك فلان، قلت: والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً، قال: لكنك استمعت فرضيت. وكان ميمون بعد ذلك لا يدع أن يُغتاب عنده واحد. وقال رجل لابن سيرين: إني قد اغتبتك فاجعلني في حل، قال: إني أكره أن أُحِلَّ ما حَرَّمَ الله ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ قابل التوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي: من آدم وحواء، والمعنى: إنكم متساوون في النسب، لأن كلكم يرجع في النسب إلى آدم حواء. زجر الله سبحانه عن التفاخر بالأنساب. وروى عِكْرِمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إنما أنتم من رجل وامرأة، كجمام الصاع، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى». ثم ذكر سبحانه أنه إنما فرَّق أنساب الناس ليتعارفوا لا ليتفاخروا، فقال: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ وهي جمع شعب، وهو الحي العظيم، مثل مضر وربيعة، وقبائل هي دون الشعوب، كبكر من ربيعة، وتميم من مضر. هذا قول أكثر المفسرين. وقيل: الشعوب دون القبائل، وإنما سميت بذلك لتشعبها وتفرقها، عن الحسن. وقيل: أراد بالشعوب الموالي، وبالقبائل العرب، في رواية عطاء عن ابن عباس. وإلى هذا ذهب قوم فقالوا:

---

(١) وفي نسخة: شاه.

الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والأسباط من بني إسرائيل. وروي ذلك عن الصادق عليه السلام. ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: جعلناكم كذلك لتعارفوا، فيعرف بعضكم بعضاً بنسبه وأبيه وقومه، ولولا ذلك لفسدت المعاملات، وخربت الدنيا، ولما أمكن نقل حديث. ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ أي: إن أكثركم ثواباً وأرفعكم منزلة عند الله أتقاكم لمعاصيه، وأعملكم بطاعته. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه، ورفعتم أنسابكم، فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وروي أن رجلًا سأل عيسى بن مريم: أيُّ الناس أفضل؟ فأخذ قبضتين من تراب فقال: أي: هاتين أفضل؟ الناس خلقوا من تراب، فأكرمهم أتقاهم. أبو بكر البيهقي بالإسناد عن عباية بن ربعي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عز وجل جعل الخلق قسمين: فجعلني في خيرهم قسماً، وذلك قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ فأنا من السابقين وأنا خير السابقين. ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ الآية. فإني أتقى ولد آدم ولا فخر، وأكرمهم على الله ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ فأنا وأهل بيتي مُطَهَّرون من الذنوب». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم ﴿خَبِيرٞ﴾ بأحوالكم لا يخفى عليه شيء من ذلك.

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ وهم قوم من بني أسد، أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنة جدبة، وأظهروا الإسلام، ولم يكونوا مؤمنين في السر، إنما كانوا يطلبون الصدقة. والمعنى: إنهم قالوا صدقنا بما جئت به، فأمره الله سبحانه أن يخبرهم بذلك ليكون آية معجزة له، فقال: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ أي: لم تصدقوا على الحقيقة في الباطن. ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي: أنقدنا واستسلمنا مخافة السبي والقتل، عن سعيد بن جبير وابن زيد. ثم بيَّن سبحانه أن الإيمان محله القلب دون اللسان، فقال: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ قال الزجاج: الإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به الرسول، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان، وصاحبه المؤمن المسلم حقاً. فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه، فهو في الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق. وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ أي: لم تصدقوا بعد بما أسلمتم تعوذاً من القتل، فالمؤمن مُبْطِنٌ من التصديق مثل ما يُظْهِر، والمسلم التام الإسلام مُظْهِرٌ للطاعة، وهو مع ذلك مؤمن بها. والذي أظهر الإسلام تعوذاً من القتل غير مؤمن في الحقيقة، إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين. وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»، وأشار إلى صدره. ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي: لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، عن ابن عباس ومقاتل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «يعلمون» بالياء، والباقون: بالتاء.

● **الحجة:** وجه التاء أن قبله خطاباً، وهو قوله: ﴿لَّا تَمُنُّوا۟﴾. ووجه الياء أن قبله غيبة، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

● **الإعراب:** خبر المبتدأ الذي هو ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صفة لهم.

● **المعنى:** ثم نعت سبحانه الصادقين في إيمانهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: لم يشكوا في دينهم بعد الإيمان، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في أقوالهم، دون من يقول بلسانه ما ليس في قلبه. قالوا: فلما نزلت الآيتان أتوا رسول الله ﷺ يحلفون أنهم مؤمنون صادقون في دعواهم الإيمان، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرون الله بالدين الذي أنتم عليه؟ والمعنى: إنه سبحانه عالم بذلك فلا يحتاج إلى إخباركم به. وهذا استفهام إنكار وتوبيخ، أي: كيف تعلمون الله بدينكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن العالم لنفسه يعلم المعلومات كلها بنفسه، فلا يحتاج إلى علم يعلم به، ولا إلى من يُعلِمه، كما أنه إذا كان قديماً موجوداً في الأزل لنفسه استغنى عن مُوجد أوجده، وكانوا[1] يقولون: آمنا بك من غير قتال، وقاتلك بنو فلان. فقال سبحانه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ أي: بأن أسلموا. والمعنى: إنهم يمنون عليك بالإسلام ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي: بإسلامكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بأن هداكم للإيمان وأرشدكم إليه، بأن نصب لكم من الأدلة عليه، وأزاح عللكم ووفقكم له، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادعائكم الإيمان. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة ومعصية، وإيمان وكفر.

---

(١) وفي بعض النسخ: كان هؤلاء.